بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٨٦)

التوبة من الذنوب من أسباب تفريج الكروب

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١]

أما بعد:.

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

أيها الناس :قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]

ساق الإمام ابن جرير الطبري بسنده عَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : لَعَلَّ رَاجِعًا أَنْ يَرْجِعَ ، لَعَلَّ تَائِبًا أَنْ يَتُوبَ ، لَعَلَّ مُسْتَعْتِبًا أَنْ يَسْتَعْتِبَ.ا.هـ(١)

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختبارا منه، ومجازاة على صنيعهم،﴿عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨].ا.هـ(٢)

وقال سبحانه وتعالى﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨]

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : : وَاخْتَبَرْنَاهُمْ بِالرَّخَاءِ فِي الْعَيْشِ ، وَالْخَفْضِ فِي الدُّنْيَا ، وَالدَّعَةِ وَالسَّعَةِ فِي الرِّزْقِ ، وَهِيَ الْحَسَنَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَيَعْنِي بِالسَّيِّئَاتِ : الشِّدَّةَ فِي الْعَيْشِ ، وَالشَظَفَ فِيهِ ، وَالْمَصَائِبَ وَالرَّزَايَا فِي الأَمْوَالِ . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾يَقُولُ : لِيَرْجِعُوا إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَيُنِيبُوا إِلَيْهَا ، وَيَتُوبُوا مِنْ مَعَاصِيهِ.ا.هـ(٣)

وقال جل وعلا﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ

(١) . عند تفسيره لسورة [الروم:٤١]

(٢) . عند تفسيره لسورة [الروم:٤١])

(٣) . عند تفسيره لسورة [الأعراف:١٦٨]

﴿أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام:٤٥]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى : يعني: الفقر والضيق في العيش ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: ما رقت ولا خشعت ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام:٤٣] أي: من الشرك والمعاصي.ا.هـ(١)

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة:٢١]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى : قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه. وروي مثله عن أبي بن كعب، وغيره.ا.هـ(٢)

وقال جل وعلا﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون:٧٧

أيها الناس عباد الله :في هذه الآيات المباركات بيان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبعض الحكم من الابتلاء والاختبار لعباده من حصول شيء من العذاب والعقوبة عليهم من

(١) . عند تفسيره لسورة [الأعراف:١٦٨]

(٢) . عند تفسيره لسورة [سورة السجده (٣٢) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

الزلازل والبراكين والفياضانات وبعض مايبتليهم الله به من الشدة والكروب والفتن والمحن ألا وهو من أجل أن يتضرع الناس إلى ربهم جل وعلا ويتوبوا إليه ويستغفروه فَينفس عنهم كربهم ويبدل حالهم و يُذْهِبُ شدتهم فإن تاب العباد ورجعوا إليه وغيروا من حالهم التي كانت سببا في ماهم فيه من الذنوب والمعاصي غَيَّرَ الله حالهم كما قال سبحانه﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١﴾ [الرعد: ١١]

فإن الذنوب والمعاصي وعدم التوبة منها هي السبب فيما العباد فيه من الكربات والشدائد قال ربنا سبحانه﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : فَإِنَّمَا يُصِيبُكُمْ ذَلِكَ عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ لَكُمْ بِمَا اجْتَرَمْتُمْ مِنَ الآثَامِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ وَيَعْفُو لَكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ إِجْرَامِكُمْ ، فَلاَ يُعَاقِبُكُمْ بِهَا.ا.هـ(١)

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥]

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال أقبل علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فقال "يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة

(١) . عند تفسيره لسورة [الشورى: ٣١]

المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم" رواه ابن ماجة وصححه الألباني (١)

فتأملوا كم حصلت من العقوبات ومن البلاء العظيم نسأل الله السلامة والعافية بسبب هذه المعاصي التي يتساهل فيها كثير من الناس والتي هي واقعة فينا وأعظم منها إلا من رحم الله والعياذ بالله ونسأل الله السلامة والعافية.

وورد في الحديث الذي يحسنه بعض أهل العلم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" أخرجه أحمد وغيره من حديث ثوبان رضي الله عنه(٢)

وقال ربنا سبحانه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢]

فهذا مثل عظيم ذكره ربنا جل وعلا لتلك القرية التي كانت في ذلك النعيم العظيم حيث كانت آمنة مطمئنة وأيضا يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فلما حصلت منها تلك المعاصي والذنوب ضرب الله عليهم تلك العقوبات فأذاقها الله لباس الجوع والخوف

(١) . صحيح. ابن ماجة [٤٠١٩] اسلسلة الصحيحة [١٠٦]

(٢) .حسن .أحمد [٢٢٣٨٦] السلسلة الصحيحة تحت حديث [١٥٤]

وتأملوا إلى شدة ما ابتلاهم به من ذلك العذاب الذي جُعِل ملاصقا لهم لا يفارقهم كأنه لباسا والعياذ بالله.

وهذا من كمال عدله سبحانه ولا يظلم ربك أحدا قال سبحانه ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزُّخرُف:٧٦]

وقال سبحانه ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت:٤٦]

فإن الله سبحانه لا حاجة له في عذاب عباده إن هم آمنوا واتقوا إنما يرسل عليهم بعض العذاب ليؤدبهم به فيرجعوا إليه وينيبوا فيغير حالهم ويذهب كربهم وشدتهم قال سبحانه وتعالى﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧]

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ :أي منفعة له في عذابكم إن شكرتم وآمنتم، فنبه تعالى أنه لا يعذب الشاكر المؤمن، وأن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه.ا.هـ(١)

فهذه العقوبات يضربها الله سبحانه على عباده لحكم عظيمة منهاالرجوعهم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال جل وعلا﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨]

فإذا رجعوا وتابوا وأنابوا إليه جل وعلا وتضرعوا رفع عنهم ذلك العذاب والبلاء ولا بد .

(١) . عند تفسيره لسورة [النساء:١٤٧]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجواب الكافي : وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ : أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ ، وَتُحِلُّ النِّقَمَ ، فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : مَا نَزَلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]

فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعَمَهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ ، وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ ، وَأَسْبَابَ رِضَاهُ بِأَسْبَابِ سُخْطِهِ ، فَإِذَا غَيَّرَ غَيَّرَ عَلَيْهِ ، جَزَاءً وِفَاقًا ، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ١٠] . فَإِنْ غَيَّرَ الْمَعْصِيَةَ بِالطَّاعَةِ ، غَيَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ بِالْعَافِيَةِ ، وَالذُّلَّ بِالْعِزِّ .

وَقَالَ تَعَالَى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١]

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ الْإِلَهِيَّةِ ، عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أُحِبُّ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أَكْرَهُ ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَى مَا يَكْرَهُ ، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أَكْرَهُ ، فَيَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أُحِبُّ ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ . ا.هـ[1]

(١) . «الداء والدواء = الجواب الكافي – ط عطاءات العلم» (١/ ١٧٩)

فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم توبة نصوحا وأن يصلح أحوالنا وألا يؤاخذنا بسوء فعالنا إنه جواد كريم والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية

الحمدلله رب العالمين مالك يوم الدين إله الأولين والآخرين وصلى الله وسلم على نبيه الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد.

عباد الله: فإن التوبة والرجوع إلى الله تعالى من أعظم الأسباب في دفع الكربات والشدائد والهموم والغموم فإن هذه البلايا والمصائب والمحن عقوبات معجلة يعجلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعباده وتاديب يؤدب الله بها من أعرض وضل ليقبل ويهتدي إلى سواء السبيل فإذا تاب العباد ورجعوا رفع الله عنهم مانزل بهم من الشدائد والزلالزل والمحن قال العباس عم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ ورَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ : " اللّٰهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة.ا.هـ [(١)]

ولما كسفت الشمس على عهده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ هرع إلى الصلاة وأمر أمته بذلك عن عائشةرضي اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:كسفت- الشَّمْسُ على عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: فقام النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ

(١) . «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (٢/ ٩٢)

رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ، وَهِيَ دُونَ قِرَاءَتِهِ الْأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ دُونَ رُكُوعِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ، فَصَنَعَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثم قام فقال: "إن الشمس والقمرلا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُرِيهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذلك فافزعوا إلى الصلاة".متفق عليه [١]

فبهذا تدفع نقم الله عن عباده بالإقبال عليه والتوبة والصدق معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،وتأملوا إلى ما ذكره الله عن أولئك الثلاثة الذين خُلفوا عن الغزو مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَوكيف أن الهم والكرب بلغ بهم مبلغا عظيما حتى ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلما علم الله صدق توبتهم وصدق أوبتهم ورجوعهم إلى ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل فرجه عليهم وتنفيسه لهم فضلا منه ومنة جل وعز قال الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٨]

وقصتهم يرويها أحدهم وهو كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُوهو أحد الثلاثة قال:... ونهى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة -من بين من تخلف عنه، فاجتنَبَنَا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَب القوم وأجلَدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) . البخاري [١٠٠٩] مسلم [٩٠٦]

وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟... فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا. متفق عليه[(١)]

فتأملوا إلى هذا البلاء العظيم والكرب الشديد الذي بلغ بهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فلما علم الله صدق توبتهم فرج عنهم وأبدلهم بعد كربهم وشدتهم وضيقهم فرجا ومخرجا بل وفرحا وذكرا حسنا في الدنيا والآخرة وهكذا العبد إذا تاب إلى ربهم وأناب فرج عنه والله ولا بد وهذا من حسن ظننا بالله سبحانه فإنه عند ظن عبده المؤمن فإن ظن خيرا فله وإن ظن شرا فله.

وأيضا ماقصه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن قاتل مئة نفس من أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال :كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم من

(١) . البخاري [٤١٥٦] مسلم [٢٧٦٩]

يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق فأتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة" متفق عليه(١)

فتأملوا كيف ضاق عليه الأمر فأصبح في كرب وشدة وضيق وعناء مما هو فيه من الذنوب والمعاصي واقتراف الحرمات ،يبحث ويتنقل من راهب إلى عالم عله يجد عندهم فرجا مما هو فيه من الكرب والشدة فلما صدق الله في طلب التوبة فرج الله عنه وأرشده إلى المجيئ إلى ذلك العالِم الذي جعل الله فرجه عليه يديه وأرشده إلى ترك بلده فإنها بلد سوء وأن يلحق بالبلد الطيب أهله وكان ما كان من قصته ، ففرج الله عنه بصدق توبته وأوبته إلى الله سبحانه وتعالى .

عباد الله إنه لا يخفى على أحد منكم ما العباد فيه من الضيق العظيم والكرب الشديد الذي بلغ مبلغا عظيما فضاقت على الناس سبل معايشهم وعسرت أمورهم وتنكد حالهم وزاد بلاؤهم وحصلت زلازل مهولة وأراجيف عظيمة قتل بسبب ذلك الألاف في لحظة واحدة وجرح العشرات من الألاف وشرد من شرد منهم وهذا لعمر الله بسبب الذنوب والمعاصي وبسبب البعد عن الله فتاهت سبلهم وتشعبت طرقهم

(١) . البخاري [٣٢٨٣] مسلم [٢٧٦٦]

وتعلقت آمالهم بغير ربهم في البحث عن المخرج والنجاة مما هم فيه والأمر هين سهل والله ألا وهو الرجوع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتوبة والأوبة بصدق وإخلاص فكم من الذنوب والمعاصي التي الناس واقعون فيها ليلا ونهارا سرا وجهارا صغارا وكبارا إناثا وذكورا ، بالله كم من قاطع للصلوات بل ومن متعلق بالأموات وكم من هاجر لكلام رب الأرض والسماوات ، كم من دماء تسفك وأعراض تنتهك وأموال تسلب وحقوق تضيع ، كم من ضعيف ينتهك حقه ولا ناصر ولا معين كم من يتيم يؤكل حقه ولا حامي له إلا الله.

كم من الفواحش والمنكرات ، كم من قطع للطريق ، كم غش وربا وكم من كذب واحتيال وكم تطفيف للميزان ، وكم من تبرج وسفور واختلاط ، وكم وكم وكم يعدد العبد من المنكرات والمعاصي والموبقات التي تسخط رب الأرض والسماوات .

كم من المخالفات التي يقع فيها أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وقد أهلك الله بسببها أمما بأسرها فياعباد الله إن الله يغاااااار إن الله يغاااار وغيرته أن يأتي العبد ماحرم عليه عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : "إن الله يغار، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ " متفق عليه [(١)]

وليُعلم أنه ليس بين العباد وبين ربهم واسطة وإن الله يجازي العباد على قدر أعمالهم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : " يَا عِبَادِي : إِنِّي حرمت الظلم عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا

(١) . البخاري [٤٩٢٥] مسلم [٢٧٦١]

تَظَالَمُوا،...يَا عِبَادِي : إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ " أخرجه مسلم (١)

فياعباد الله التوبة التوبة فإن الذنوب لها من الله طالبا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ " يَا عَائِشَةُ ، إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ،فإن لها من الله طالبا "أخرجه ابن ماجةوغيره وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى (٢)

فالحذر الحذر من الذنوب والمعاصي فإن الأمر عظيم والخطب جسيم وهذه البلايا إنما هي علامة إنذار من الجبار سبحانه ولا منجي لنا ورافع مما نحن فيه إلا الله تعالى فإنه سبحانه وتعالى مالك الملك كله قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦]

وهو سبحانه القائل عن نفسه الكريمة جل وعلا ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل:٤٠]

أسأل الله أن يرزقنا توبة نصوحا وأن يصلحنا جسدا وروحا وأن يرفع عنا الغلاء والوباء والزلازل والمحن ومضلات الفتن ماظهر منها وما بطن وأن يصلح فاسد قلوبنا وأعمالنا إنه جواد كريم

(١) . " باب تحريم الظلم" برقم [٢٥٧٧]

(٢) . صحيح.ابن ماجة [٤٢٤٣] السلسلة الصحيحة [٥١٣]